

ليبيا إلى أين ؟

وأنت سيدى الرئيس القذافى ماذا تريد بهذه القومية العربية؟

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

نعم سوف أظل عربياً .

ولن أكف عن أن أصرخ بهذه العبارة حتى لو كف الجميع عن التغنى بها وتنكر الجميع لدلالاتها ، إنها جوهر الوجود ومنطق الحياة .

لقد مرت بنا فترات كنا نرى فيها زملاءنا فى العروبة يتنكرون لأصلهم ، ويتصورون أن الحديث عن أصلهم التركى ، أو عن انتمائهم المزعوم الأسبانى ، يجعل الآخرين يعتقدون بصدق هذا القول إن صفتنا العربية ترسم على وجوهنا ، تخط الملامح ، وتنبض بالخصائص ، حتى أن الفرد منا لو نزع ملابسه وبدا عارياً فإنه لن يستطيع أن يخفى أصله العربى وانتماءه إلى ذلك العالم الذى يهرب منه .

ولكن لماذا الهرب ؟ هل الهزيمة كما حدث فى عام 1967 ؟ ، أو لتعاقس كما سجلته أحداث لبنان 1982 ؟ وهل هذا الهرب يعنى أن الهزيمة لم تعد لصيقة بوجودنا ؟ الرجولة هى أن نتعلم من الهزيمة . أليست السياسة هى أن تقع وتقع ثم تسقط وتسقط ولكنك لتود دائماً فى كل مرة لتقف على أقدامك من جديد ، وتبدأ المسيرة من جديد ، حتى لو استندت إلى خصمك وعدوك لتعود منتصب القامة لتستمر فى قصة الكفاح ، تكتب فيها صفحة أخرى بقوة ثباتك وصدق إيمانك ؟

تعلم من الخبرة ، هذا هو جوهر العمل السياسى .

نعم يا سيدى العقيد معمر القذافى ، الممارسة السياسية هى أخطاء علينا أن نتعلم منها ، وشطحات علينا أن نعى معناها ، وسقوط علينا أن نتخطاه بوثة عملاقة صادقة ومؤمنة .

ولكن لماذا نبدأ بالتائج ولا نجعل منطلقنا المقدمات؟!

أ - مما لا شك فيه سيدى العقيد أنك تمثل ظاهرة فى عالمنا العربى ، وأنت تمثل ظاهرة لم تفهم ، ولن نستطيع فهمها ، إلا بكثير من المعاناة ، وذلك دون الحديث عن تبريرها . فهذا العالم الذى نعيشه أى العالم العربى ، هو عالم التناقضات . وأنت سيدى العقيد ونظامك تعكس بدرجات عميقة هذه التناقضات ولكن ألا تتفق معى أن هناك من التناقضات ما لا يستطيع أى محلل أن يتجاهلها ، مهما بلغت به روح التسامح ؟ تناقضات يجب أن تقف إزاءها بكثير من الحذر ، بل والريبة ، حيث إن تلك التناقضات تلغى منطق الحركة ذاتها ، إن لم تكن سبباً فى تشويه الحركة ودفعها بعيداً عن هدفها الحقيقى ، بل وبحيث تقود الحركة إلى تفتيت مقوماتها ، وخلق التسبب فى عناصرها ؟

ولنبداً بتسجيل مجموعة من الحقائق .

أول هذه الحقائق ترتبط بلحظة اندلاع الثورة الليبية . الثورة الليبية تعود إلى أواخر الستينات فى سبتمبر 1969 . لم يكن قد مضى على هزيمة حزيران يونيو 1976 أكثر من عامين عندما استيقظت العقول لتكتشف كيف أن كلاً منا ساهم بدرجة أو بأخرى فى تلك المأساة التى كان على العالم العربى أن يدفع ثمنها غالباً ، قيادة مندفعة ، وأعوان منتفعون متسلقون ، ثم مفكرون انقلبوا ليؤدوا وظيفة المهرج فى البلاط ، لم يكن العقل العربى قد اكتشف بعد عمق المأساة إلا منذ عدة أشهر ، على وجه التحديد عندما بدأت حرب الاستنزاف ، ورأت تلك العقول الواعية ولمست كيف انتهت هزيمة حرب الأيام الستة بأكثر من استعمار واحد ، استعمار صهيونى فى الأراضي المحتلة ، واستعمار أمريكى ، وقد بدأت تتولد القناعة بأن علينا أن نسعى راكعين إلى واشنطن ، لترفع عنا جزءاً من المأساة ، وذلك لو افترضنا على أنها أهم مظاهر الخنوع والتبعية ، و« استعمار » سوفياتى مرده الحاجة إلى الدفاع عن الذات .

فى ذلك الإطار النفسى انفجرت ثورة سبتمبر وهى تعلن أنها لم تكن مجرد انقلاب عسكرى ، أو تغيير فى أداة الحكم ، أو إعادة لتشكيل نظام سياسى ، بل إنها تملك إطارها الأيديولوجى الذى يجعلها تمثل استمرارية ثابتة مع القدرة المصرية السابقة على هزيمة 1967 إنها تعلن بصراحة أن تلك الهزيمة لم تمنع من أن جوهر ثورة يوليو يمثل الأمل فى مستقبل التماسك العربى .

كذلك وهذه الحقيقة نعتزف بها ، فإن الثورة الليبية أعطت تلك الدولة فاعلية لم تكن تملكها ليبيا حتى الستينات لم تكن تمثل أى كيان سياسى ، ولم يكن يُنظر إليها إلا على أنها

أرض فضاء قد فرغت من كل فاعلية سياسية ، خلال فترة الخمسة عشر عاماً التي تلت استيلاء العقيد القذافي وأعوانه على السلطة استطاعت ليبيا أن تحتل مكانة معينة فى نطاق التعامل الدولى ، فهى قد أمّنت حدودها الجنوبية ، ووضعت حداً لأن تكون تلك الحدود هدفاً سهل المنال . وهى قدمت مساعدات معينة للحركات الإسلامية ، وانطلقت بهذه الخصوص من مبدأ تصدير الثورة ، الذى سوف يتلقفه الحمينى فيما بعد ، وسوف يجعل من أساس تعامله مع الوطن العربى ، وهى قد حاولت تأمين وتوسيع نفوذها فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى إيطاليا وفى مالطة على وجه الخصوص ، وبغض النظر عن النجاح أو الفشل فإن أكثر من سياسى واحد لم يتردد فى أن يهاجم على صفحات الجرائد اليومية الحكومة الإيطالية والقيادات الإيطالية إزاء الاستسلام للغزو الليبى المقنع .

أضف إلى ذلك أننا لا بد وأن نعترف بأن الثورة الليبية حاولت أن تصبغ وجودها بأهداف اجتماعية وفكرية تعبر عن تصور جديد وغير معتاد للتراث الإسلامى .

المشكلة بالنسبة للعقيد القذافي ، هى البحث عن عناصر التخريب فى التناسق الأصل ، الذى بدأت به وانطلقت منه الدعوة الإسلامية ، وهو يبحث فى تعاليم القرآن عن تلك المتغيرات التى تقود إلى إفساد الجماعات بحيث يستطيع بناء إطار واضح للتعامل الاجتماعى والاقتصادى ، ورغم أنه يعلن أن الدين ما هو إلا تأكيد لقانون الطبيعة ، إلا أنه ينتهى بالقول بأن الإسلام هو نظام للتنقية والوصف أكثر منه لوضع قواعد الممارسة ومجازاة الإخلال بتلك القواعد ، وهو عقب قفزات متعددة ينتهى لتأكيد أن الديمقراطية ليست مجرد إجراء حكومى أو انتخابى ، وإنما هى تجمع الجماعة لتصير مسؤولة عن نفسها ، ولتحدد هى بذاتها بأسلوبها فى الرقابة والعقاب .

لسنا فى مقام تقييم هذه الفلسفة ، أو مناقشتها ولكننا نعلم أنها محاولة للاجتهاد ، وتقاليدنا تأبى علينا إلا أن نحترم أى محاولة بهذا الخصوص ، حتى لو تضمنت الكثير من الشطحات .

أمر آخر يجب أن ندخله فى الاعتبار ، ونحن نتحدث معك على هذه الصفحات سيدى العقيد : أنت تقول : إنك زعيم ثورة ولست فقط رئيس دولة ، أنت قائد حركة سياسية ولست مجرد حاكم أمة ، ولو كان علينا أن نحدثك كرئيس دولة أو كحاكم سياسى لما كنا قد تطرقنا إلى مسؤولياتك الفكرية والتزاماتك القومية ، ولكننا نعلم أنك لست فقط قائد ثورة بل تعلن نفسك خليفة عبد الناصر ، وأنتك تسير على نهج ثورة 23 يوليو ، وهى من أكبر الحركات القومية الوحودية فى تاريخ المنطقة ، وبغض النظر عن فشلها من عدمه فهى التى أيقظت المد القومى ، ودفعت به إلى آفاق ما كان أحد يحلم بها أو يتوقعها ،

فقط من هذا المنطلق تسمح لنا بأن نفتح صفحة الحساب ، ونطالبك بمراجعة المواقف وتصحيح الأخطاء .

هذه جميعها حقائق نبدأ فنسلم بها ، وهي جميعها نقاط إيجابية لصالح ثورة الفاتح ولقائدها ، ولكن السؤال الذى نطرحه حالياً ، والذى يمثل فى قناعتنا أخطر محور للتعامل مع القيادات العربية المسؤولة وهو التالى : أين الوحدة العربية فى حركتكم ؟ ماذا فعلت تلك الثورة فى سبيل تدعيم مفهوم القومية العربية ؟ إن هذا هو جوهر منطق التعامل وعلينا عندما نناقش أى واقع سياسى ، أن نجعل نقطة البداية هى هذا الجوهر ، لا يجوز أن تقتصر على الملامح الخارجية ، ولا يجوز أن تخدمنا الممارك الجانيبة ، وعلينا أن نذكر القارئ بأننا نحن دعاة القومية العربية قد درجنا على عدم الثقة فى أساليب ومخططات القوى الأجنبية . نحن نعلم أن وحدتنا سوف تهدد المصالح الأجنبية ، وهى مصالح ضخمة بعيدة المدى ، ونحن نعلم أيضاً أن أساليب هذه القوى تنبع من مفهوميين : ظاهرها البراءة بحيث لا يشك الواحد منا فى المنطلق التخريبي ، الذى تنبعث منه عملية الاختراق ، وهى تأتى من حيث لا نتوقع ، من كان يتصور أن جامعة الدول العربية ، هى موجة خلقتها وأمتطتها الدبلوماسية البريطانية ؟ ومن كان يستطيع أن يصدق أن الدعاية البريطانية فى مصر وبقصد تشويه العقل المصرى القيادى ، كانت تُنشر باللغة الفرنسية وفى صحف موكلتها وأعدتها لهذه الغاية السفارة البريطانية ؛ لأن الطبقة المثقفة فى مصر آنذاك كانت تتكلم باللغة الفرنسية ؛ لأن هذه هى لغة الطبقات المثقفة فى مصر وذلك فى وقت كانت فيه الأمة العربية لا تمثل إلا أهمية محدودة ، فما بالنا اليوم وقد أضحت الأرض العربية محور الصراع الدولى ؟ وقد تقدمت إمكانيات التغلغل فى العقول والأفئدة وفى تطويع القيادات ؟ نعم إن قلاعنا مهددة من الداخل ، قبل أن تكون موضع تهديد من الخارج ، هذه أيضاً حقيقة يجب أن نقف إزاءها بكثير من التأمل .

ب - التطور الوجدوى يملك مقدماته ومتطلباته الأساسية ، وهى تدور حول ثلاثة متغيرات أساسية لا يمكن التخلّى عن أى منها :

أولاً : التحول الديمقراطى الذى أساسه تدعيم كرامة الفرد ، واحترام حرياته وتعميق ثقته فى ذاته فالتطور الوجدوى هو تعبير عن المفهوم الديمقراطى على المستوى الجماعى ، الذى بدوره لا يمكن إلا أن ينطلق من نظرة شاملة لاحترام الكرامة الإنسانية .

ثانياً : للغزو الفكرى والأيدىولوجى لا من منطلق من مبادئ مبهمّة غامضة مجهلة ، ومفاهيم فضفاضة لا تصلح إلا للغة الغوغائية تستهدف النيل من ذلك الجوهر المحدد الذى تنصب عليه الحركة وهو خلق الإرادة الواحدة .

ثالثاً : خلق الترابط بين القوى المؤمنة والمساندة فى حمل راية الصراع فى سبيل تحقيق الوحدة ، وبغض النظر عن أى اعتبار آخر ، الوحدة هدف حركة ، ومن ثم فحتى تتحقق الوحدة يجب أن تختفى جميع الأهداف الأخرى ، أو تنتقل إلى المستوى الثانى للتعامل السياسى ، الوحدة رداء يجب أن يجمع ويحتضن كل من آمن بها ، حتى ولو خالفنا فى بعض عناصر التصور والإدراك السياسى غير المرتبط مباشرة بمفهوم الوحدة .

نحن نسلم بأن الحركة الوحودية لست هى الحركة القومية ، كلاهما يختلف عن حركة التحرر السياسى ، ورغم أنه فى الواقع العربى نجد هذه المفاهيم الثلاث تتعانق فى آن واحد حيث القومية العربية تفرض وحدة المجتمع العربى ، وحيث لا يمكن تصور الدفاع عن القومية العربية دون جعل نقطة البداية ، هى عملية تحرير جميع أجزاء الأرض العربية التى تدنسها الأقدام غير العربية ، إلا أننا حتى لو قبلنا فرضاً أننا سوف نستبعد من حديثنا القومية العربية وعناصرها ، ونقتصر على مفهوم الوحدة العربية وعناصره ، فهل نستطيع أن نفهم سياسة الرئيس القذافى منذ وصوله إلى السلطة ، وبصفة خاصة خلال الأعوام الخمسة الأخيرة وحتى هذه اللحظة ؟

تساؤلات فى محلها :

لا نريد أن نناقش جوهر فلسفة العقيد القذافى ، فهو أولاً رجل حركة ، وعليه أن يبتعد عن الفلسفة ومشاكلها ، ولا يجوز أن تسدده تلك المجموعة من الصفاقة والمتسلقين الذين أحاط بهم نفسه ليزينوا له قدراته الفكرية والتنظيرية ، ولعل هذا يدخل فى دائرة تلك المسرحيات التى تدعو إلى الضحك أكثر منها إلى البكاء ، والتى ارتبطت بالثورة الليبية منذ مراحلها الأولى ، نحن لا نشك فى نقاء الثورة الليبية منذ مسراحلها الأولى ولكننا لا نزال نتساءل عن حقيقة ذلك النقاء ؟ بل ونطرح بخصوصه أكثر من استفهام واحد ، خمسة أيام عقب الثورة وهذا الرئيس « بومدين » يشد رحاله إلى بنغازى ، ينقل إلى القادة الجدد تأييد الثورة الجزائرية ، ومع ذلك لم تمض عدة أشهر على تلك الزيارة إلا وطرابلس تعلن أنها لن تحضر مؤتمر وزراء اقتصاد بلاد المغرب ، والذى كان يهدف لبناء المغرب العربى الكبير ، لماذا ؟ لم يمض على ذلك وقت كثير ليعلن القذافى فى أكتوبر من عام 1971 : « لقد آن الأوان لأن تكلف الجزائر نفسها بأن تحدد موقفها ، إن سلوكها بخصوص الوحدة العربية ومعركة المصير موضع شبهة » .

علاقات القذافى بالرئيس « بورقيبة » لم تخرج عن هذا الإطار من الاستخفاف بكل مقدسات التقارب العربى . الحوار العلنى الذى شهدته تونس أثناء زيارة القذافى لها والذى دار بينه وبين الرئيس الحبيب « بورقيبة » ظل موضع الهزء والسخرية من الصحافة العالمية

ولفترة غير قصيرة ، أما عن أحاديث الرئيس القذافي فى الاتحاد الاشتراكى فى مصر ، أثناء محاولات الوحدة خلال فترة حكم السادات فهى معروفة وليست فى حاجة إلى تفصيل .

ولكن لنقتصر مؤقتاً على موضوعنا : التصور الوجدوى فى سياسة ليبيا الثورية .

جـ - لو عدنا إلى المقومات التى بدأنا بها كعناصر أساسية للتطور الوجدوى لما وجدنا موضعاً لآى منها فى تطور السياسة الليبية .

السياسة الليبية عملت على أن تنقض على كل وجود ديمقراطى فى المجتمع الليبى ، بل إنها انتهت بأن دعمت من حكم الغوغائية واستخدمت تلك الغوغائية وسيلتها للتمويه على الأهداف ، التى كانت يجب أن تسيطر حقيقة على سياستها ، ولم يعد من الممكن أن نبرر ذلك ، بأنه عدم خبرة أو سطحية أو سذاجة فى التعامل ، لقد أثبت العقيد القذافي أنه يملك الكثير من الحنكة ، وقد برز ذلك واضحاً فى تعامله مع فرنسا ، ليس فقط حيث استطاع أن يخلق التناقض بين السياسة الفرنسية والسياسة الأمريكية ، بل إن الرئيس القذافي استطاع أن يوقع الرئيس الفرنسى «ميتران» فى مطب ، لم يخرج منه حتى هذه اللحظة ، فالتظاهر بالسذاجة والبراءة ، لم يعد قادراً ولا كافياً لتبرير الأخطاء .

ولعل هذه الملاحظة تدعو إلى طرح تساؤل آخر . ما هى حقيقة هذا الإطار الفكرى والأيدىولوجى ، الذى تنطلق منه الثورة الليبية ؟ الحديث عن الإسلام ليس موضع مناقشة ولكن الخلط بين المفهومين هو الذى يطرح التساؤلات ، كل من هذين المفهومين له مقوماته وله مستواه ، إن الوحدة القومية هى الترابط بين أجزاء الوطن الواحد فى مواجهة أعداء ذلك الوطن حتى لو كانوا مسلمين ، والإسلام هو الانتماء الدينى فى علاقة أفراد تلك الجماعة ، بالقدرة الإلهية حتى لو كان بعض أعضاء الجماعة لا ينتمون إلى ذلك الدين لو تم دفع الإسلام ليسهوه مفهوم العروبة ، وكذلك تم دفع مفهوم العروبة ليسهوه مفهوم الإسلام ، وهو تعبير عن نقص فكرى ولكنه ينتهى بإضعاف الدلالة الحقيقية لكل منهما ، إن الخلط بين المفاهيم لا يمكن أن يكون إلا مصدره الجهالة أو سوء النية ، وقد آن الأوان لفهم بوضوح كيف أن أحد أساليب الاستعمار⁽¹⁾ الفكرى والتسميم السياسى هى إذابة العروبة فى مفهوم الإسلام ، لقد حُطمت قديماً الوحدة الإسلامية باسم العروبة ، واليوم يسعى خصومنا بإذابتها فى الإدراك الإسلامى ، وقد أثبتت السياسة الليبية استعدادها لأداء تلك الوظيفة بلا وعى ، عندما خرجت أخيراً تحذثنا عن مفهوم الوحدة العربية الإفريقية ، ورأينا فى موضع سابق كيف أن ذلك يحيل مفهوم الوحدة إلى نوع من التعاون الدولى ، كذلك فإن الحديث عن الوحدة الإسلامية التى تتعدى التضامن القومى ، يحيل هذه الوحدة

(1) رحم الله حامد ربيع لقد أدرك وعى ونبه ولكن : وما أنت بمسمع من فى القبور .

إلى نوع من التعاطف الروحي دون أن يرقى إلى الرابطة السياسية ، التى تغلف الانتماء القومى ، وهل قامت الوحدة الإسلامية التقليدية التى عرفتها أمتنا فى تاريخها العربى القديم ، بقتل التعدد اللغوى ؟ على أن الأمر الأكثر خطورة ونحن بصدد الثورة الليبية وهو ما يزيد من ملامح التناقض والتفسخ فى هذا الإطار الفكرى ، إن قادة هذه الثورة يزعمون عن قناعة بأن مدركاتهم يستمدونها من الأصول الفكرية لثورة عبد الناصر⁽¹⁾ فهل مفاهيم عبد الناصر كانت تشكك فى هذه الأولويات ؟ وهذا يقودنا إلى نتيجتين يجب أن نقف منهما موقف المناقشة والحساب :

- أول هذه النتائج ترتبط بهذا الإنفاق الغريب للثورة العربية فى غير موضعها . المال الليبى يُنفق فى كل مكان ، إلا فى تلك المواضع التى كان يجب أن ينفق بخصوصها ، بناء مطار دولى فى « جرينادة » ليستطيع استقبال الطائرات السوفياتية المحملة بالسلح ، المعونات السخية للحركات الثورية فى السلفادور ، تقديم الهبات للشوار فى أيرلندا هذه ليست إلا بعض النماذج .

- وثانى هذه النتائج موقف الرئيس القذافى من « ثورة » الخمينى ، كيف يمكن تبرير المساندة الليبية لحركات العنف والاعتداء الصادرة عن إيران ، وهى تعلن عن إرادة صريحة وقاطعة تتناقض مع أهداف القومية العربية ؟
وهنا نصل إلى قمة المأساة ، ولكننى سوف أظل أصرخ : سوف أظل عريئاً ، وللحديث بقية إنه ذو شجون » .



(1) لم يكن للفكرة الإسلامية اعتبار عند جمال عبد الناصر ، لعبة الأمم وعبد الناصر .